

هل ضم الضفة بدأ منذ أو سلو؟ عماد أبو عواد

من أكثر التساؤلات شيوعاً في الآونة الأخيرة، كيف سيكون شكل ضم الضفة الغربية وفق الرؤية الإسرائيلية، حيث إن التساؤل: هل ستضم "إسرائيل" الضفة؟، لم يعد يطرح، من منطلق القناعة العامة الفلسطينية، وللأسف الشديد الإقليمية والعالمية، أن قضية الضم آتية، وأنها إن لم تكن ضمن سياق معلن عنه إلى الآن، فهي عملياً على الأرض قائمة. أثناء كتابة هذه السطور، يقفز إلى ذهني مباشرة، ما كتبه اللواء في جيش الاحتياط، جرشون هكوهين، صاحب الفكر اليميني، والذي شكر إسحاق رابين، رئيس وزراء دولة الاحتلال الذي وقع اتفاق أو سلو، منبع الشكر كان، من الحكمة والدهاء الكبيرين، اللذين أبادهما رابين أثناء توقيع الاتفاق، من خلال استثناء 60% من الضفة الغربية وتصنيفها كمناطق "ج"، هذه المناطق شكلت وفق هكوهين البعد الجغرافي المهم، والأمني الأهم للتوسع الإسرائيلي وضمان حل الأزمات الأمنية، الأيدولوجية وكذلك السكانية. بعيداً عن المديح اليميني لحمامة السلام، الذي وفق هكوهين أوقع الفلسطينيين في فخ كبير، فإن تتبع مسيرة الاستيطان في الضفة الغربية، من الممكن أن تعطيك مؤشراً حيال ذلك. حيث لا يمكن حصر مسيرة الاستيطان وتقدمه باليمين أو ما يسمى اليسار الإسرائيلي، على العكس تماماً المسيرة توضح أن عملية الاستيطان كانت ممنهجة بطريقة مرسومة بعيداً عن الجالس على كرسي الحكم، حيث إن فترة زعيم حزب العمل باراك أثناء رئاسته للوزراء، لم تختلف كثيراً من حيث عدد الوحدات الاستيطانية عن زعيم الليكود نتياهو. حيث إن الحكومات الصهيونية المتعاقبة، كانت تستغل بشكل كبير المفاوضات للمزيد من الاستيطان، فغطاء المفاوضات والصور المنمقة، والرعاية الخارجية للجلسات، كانت تغطي على أي مشهد آخر، الأمر الذي أعطى باراك على سبيل المثال، وأثناء مفاوضاته عام 2000 مع الفلسطينيين للانسحاب، فرصة إقرار المزيد من الاستيطان. ليتفاخر لاحقاً أن عهده شهد استيطاناً أربعة أضعاف العهد الذي جاء بعده! استثناء 60% من مناطق الضفة الغربية في اتفاق أو سلو لم يكن عبثاً، بل كانت هي مساحة التوسع الإسرائيلية، التي تعتبرها "إسرائيل" المتنفس الأهم الآن لها للتوسع العمراني والسكاني، هذا إلى جانب القنوات الأخرى، فهي من ناحية اليمين الأيدولوجي تعتبر ذات بعد أمني مهم، وبالنسبة لليمين الصهيوني فهي التاريخ اليهودي الذي وفقهم تمرکز في جبال الضفة. بمعنى أن لكل تيار صهيوني حسابات مختلفة حول الضفة، لكن في النهاية كلها تؤمن بضرورة استمرار السيطرة على أجزاء منها على الأقل، وهناك من يرى ضرورة ضمها بالكامل. مسيرة الاستيطان في الضفة الغربية، تؤكد أمراً واحداً من الصعب تفنيده، أن عملية السلام لم تكن سوى مرحلة ووسيلة، أرادت "إسرائيل" من خلالها ابتلاع الضفة من خلال تهدئة الأوضاع فيها بلعبة أطلق عليها عملية السلام، التي لم تساهم للحظة واحدة بتجميد الاستيطان، بل تضاعف عدد المستوطنين فيها منذ توقيع أو سلو 5 مرات، بمعنى أن الانتفاضة التي حرمت "إسرائيل" فرصة زيادة أعداد مستوطنيتها، دفنت بعملية سلام أقرت "إسرائيل" فيها بجزء من حق الفلسطينيين وتكررت له في اليوم التالي. ختاماً مثل أو سلو الطريق الأكثر هدوءاً للاحتلال من أجل تنفيذ مخططه، فالضفة الغربية التي اعتبرها موشيه ديان بعد احتلالها عام 1967، المنطقة الجغرافية الأهم للأمن الإسرائيلي، تحولت فيما بعد لبعث ديني أيدولوجي، واليوم باتت ذات بعد توسعي مهم للتخفيف عن ضغط الساحل الفلسطيني المحتل. اليوم بدأت "إسرائيل" تعلن رسمياً ما أخفته في تسعينيات القرن الماضي، ضم الضفة أو أجزاء منها بات قريباً، وما صفقة القرن التي تقرر "إسرائيل" بذلك، سوى قطف للثمرة التي تم زرعها عند توقيع أو سلو.